﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ
الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ
قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾

يقول الحق سبحانه وتعالى : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » . . ومادام الله قد جعله أمنا فما هى جدوى دعوة إبراهيم أن تكون مكة بلدا آمنا . . نقول إذا رأيت طلبا لموجود فاعلم أن القصد منه هو دوام بقاء ذلك الموجود . . فكأن إبراهيم يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يديم نعمة الأمن فى البيت . . ذلك لأنك عندما تقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ
الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

هو خاطبهم بلفظ الإيمان ثم طلب منهم أن يؤمنوا . . كيف ؟ نقول إن الله سبحانه يأمرهم أن يستمروا ويداوموا على الإيمان . . ولذلك فإن كل مطلوب لموجود هو طلبٌ لاستمرار هذا الموجود .

وقول إبراهيم : « رب اجعل هذا بلداً آمنا » . . أى يارب إذا كنت قد جعلت هذا البيت آمنا من قبل فأمنه حتى قيام الساعة . . ليكون كل من يدخل إليه آمنا لأنه

موجود فى واد غير ذى زرع . . وكانت الناس فى الماضى تخاف أن تذهب إليه لعدم وجود الأمان فى الطريق . . أو آمنا أى أن يديم الله على كل من يدخله نعمة الإيمان .

وقوله تعالى : « اجعل هذا بلدا آمنا » تكررت فى آية أخرى تقول : « اجعل هذا البلد آمنا » . . فمرة جاء بها نكرة ومرة جاء بها معرفة . . نقول إن إبراهيم حين قال : « رب اجعل هذا البلد آمنا » . . طلب من الله شيئين . . أن يجعل هذا المكان بلدا وأن يجعله آمنا .

ما معنى أن يجعله بلدا ؟ هناك أسماء تؤخذ من المحسات . . فكلمة غصب تعنى سلخ الجلد عن الشاة وكأن من يأخذ شيئا من إنسان غصبا كأنه يسلخه منه بينما هو متمسك به .

كلمة بلد حين تسمعها تنصرف إلى المدينة . . والبلد هو البقعة تنشأ فى الجلد فتميزه عن باقى الجلد كأن تكون هناك بقعة بيضاء فى الوجه أو الذراعين فتكون البقعة التى ظهرت مميزة ببياض اللون . . والمكان إذا لم يكن فيه مساكن ومبان فيكون مستويا بالأرض لا تستطيع أن تميزه بسهولة . . فإذا أقمت فيه مبانى جعلت فيه علامة تميزه عن باقى الأرض المحيطة به .

وقوله تعالى : « وارزق أهله من الثمرات » . . هذه من مستلزمات الأمن لأنه مادام هناك رزق وثمرات تكون مقومات الحياة موجودة فيبقى الناس فى هذا البلد . . ولكن إبراهيم قال : « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم » فكأنه طلب الرزق للمؤمنين وحدهم . . لماذا ؟ لأنه حينما قال له الله :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

قال إبراهيم :

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

قال الله سبحانه :

﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

فخشى إبراهيم وهو يطلب لمن سيقيمون فى مكة أن تكون إستجابة الله سبحانه كالاستجابة السابقة .. كأن يقال له لا ينال رزق الله الظالمون. فاستدرك إبراهيم وقال : « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم » .. ولكن الله سبحانه أراد أن يلفت إبراهيم إلى أن عطاء الألوهية ليس كعطاء الربوبية .. فإمامة الناس عطاء ألوهية لا يناله إلا المؤمن ، أما الرزق فهو عطاء ربوبية يناله المؤمن والكافر. لأن الله هو الذى استدعانا جميعا إلى الحياة وكفل لنا جميعا رزقنا .. وكأن الحق سبحانه حين قال : « لا ينال عهدى الظالمين » .. كان يتحدث عن قيم المنهج التى لا تعطى إلا للمؤمن ولكن الرزق يعطى للمؤمن والكافر .. لذلك قال الله سبحانه : « ومن كفر » .. وفى هذا تصحيح مفاهيم بالنسبة لإبراهيم ليعرف أن كل من استدعاه الله تعالى للحياة له رزقه مؤمنا كان أو كافرا. والخير فى الدنيا على الشيوع . فمادام الله قد استدعاك فإنه ضمن لك رزقك .

إن الله لم يقل للشمس أشرقى على أرض المؤمن فقط ، ولم يقل للهواء لا يتنفسك ظالم وإنما أعطى نعمة استبقاء الحياة واستمرارها لكل من خلق آمن أو كفر .. ولكن من كفر قال عنه الله سبحانه وتعالى : « ومن كفر فأمتعه قليلا » .. التمتع هو شيء يحبه الإنسان ويتمنى دوامه وتكراره .

وقوله تعالى : « فأمتعه » دليل على دوام متعته ، أى له المتعة فى الدنيا. ولكل نعمة متعة ، فالطعام له متعة والشراب له متعة والجنس له متعة .. إذن التمتع فى الدنيا بأشياء متعددة . ولكن الله تبارك وتعالى وصفه بأنه قليل .. لأن المتعة فى الدنيا مهما بلغت وتعدّدت ألوانها فهى قليلة .

واقرأ قوله تعالى : « ثم اضطره إلى عذاب النار » . . ومعنى أضطره أنه لا اختيار له فى الآخرة ، فكأن الإنسان له اختيار فى الحياة الدنيا يأخذ هذا ويترك هذا ولكن فى الآخرة ليس له اختيار . . فلا يستطيع وهو من أهل النار مثلا أن يختار الجنة بل إن أعضاءه المسخرة لخدمته فى الحياة الدنيا والتى يأمرها بالمعصية فتفعل ، لا ولاية له عليها فى الآخرة وهذا معنى قوله سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة النور)

أى أن الجوارح التى كانت تطيع الكافر فى المعاصى فى الدنيا لا تطيعه يوم القيامة ؛ فاللسان الذى كان ينطق كلمة الكفر والعياذ بالله يأتى يوم القيامة يشهد على صاحبه . . والقدم التى كانت تمشى إلى أماكن الخمر واللهو والفسوق تشهد على صاحبها ، واليد التى كانت تقتل وتسرق تشهد على صاحبها. وقوله : « أضطره » معناه ان الإنسان يفقد اختياره فى الآخرة ثم ينتهى إلى النار وإلى العذاب الشديد مصداقا لقوله تعالى : « ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » . . أى أن الله سبحانه وتعالى يحذر الكافرين بأن لهم النار والعذاب فى الآخرة ليس على اختيار منهم ولكن وهم مقهورون .



﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾

يقول الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم اذكر عندما كان إبراهيم يرفع القواعد من البيت . . وجاءت « يرفع » هنا فعلا مضارعا لتصوير الحدث الآن وفى المستقبل .

ولكن هل يرفع إبراهيم القواعد من البيت الآن ؟ أم انه رفع وانتهى ؟ طبعا هو رفع وانتهى ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يستحضر حالة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت . . والله يريد من المؤمنين أن يتصوروا عملية الرفع ، فلم يكن إبراهيم يملك سلما حتى يرفعه ويقف فوقه ، ولم يكن يملك « سقالة » . . ولكن غياب هذه النعم لم يمنع إبراهيم من أن يتحايل ويأتى بالحجر .

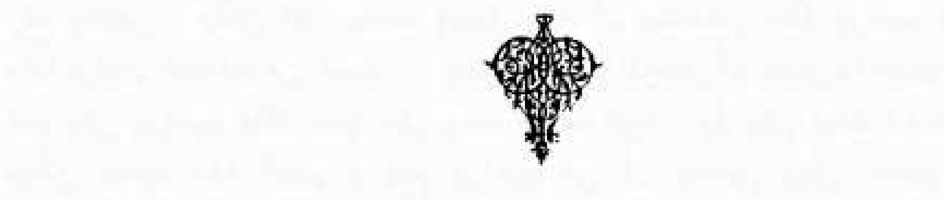
إن الله يريد منا ألا ننسى هذه العملية ، وإبراهيم وابنه إسماعيل يذهبان للبحث عن حجر ، ولابد أن يكون الحجر خفيف الوزن ليستطيعا أن يحملاه إلى مكان البناء . . ثم يقف إبراهيم على الحجر وإسماعيل يناوله الأحجار الأخرى التى سيتم بها رفع القواعد من البيت . ورغم المشقة التى يتحملها الإثنان . . هما سعيدان . . وكل ما يطلبانه من الله هو أن يتقبل منهما . والقبول والمقابلة والاستقبال كلها من مادة مواجهة . . أى أنهما يسألان الله فى موقف المعرض عن عمله ، إنهما لا يريدان إلا الثواب : « تقبل منا » أى اعطنا الثواب عما نعمله لأجلك وتنفيذا لأمرك .

وقوله تعالى : « إنك أنت السميع العليم » . . أى أنت يارب السميع الذى تسمع دعاءنا وتسمع ما نقول . . « والعليم » . . العليم بنيتنا ومدى إخلاصنا

لك .. وإننا نفعل هذا العمل ابتغاء لوجهك ولا نقصد غيرك .. ذلك أن الأعمال بالنيات ، وقد يعمل رجلان عملا واحدا.أحدهما يثاب لأنه يعمله إرضاء لله وتقربا منه والآخر لا يثاب لانه يفعله من أجل الدنيا .

والله سبحانه وتعالى عليم بالنية فإن كان العمل خالصا لله تقبله ، وإذا لم يكن خالصا لوجهه لا يتقبله .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[1] . إذن فالعمل إن لم يكن خالصا لله فلا ثواب عليه .



(١) أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجة وأبو نعيم فى الحلية والدارقطنى بألفاظ مختلفة .

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾

هناك فرق بين أن تُكلَّف بشيء فتفعله بحب ، وأن تفعل شكلية التكليف وتخرج من عملك خروج الذى ألقى عن كاهله عبء التكليف . . فى هذه الآية الكريمة دعاء إبراهيم وابنه إسماعيل وكانا يقولان يارب أنت أمرتنا أن نرفع القواعد من البيت وقد فعلنا ما أمرتنا . . وليس معنى ذلك أننا اكتفينا بتكليفك لنا لأننا نريد أن نذوق حلاوة التكليف منك مرات ومرات . . « ربنا واجعلنا مسلمين لك » نسلم كل أمورنا إليك .

إن الإنسان لا يمكن أن ينتهى من تكليف ليطلب تكليفا غيره إلا إذا كان قد عشق حلاوة التكليف ووجد فيه استمتاعا . . ولا يجد الإنسان إستمتاعا فى التكليف إلا إذا استحضر الجزاء عليه . . كلما عمل شيئا استحضر النعيم الذى ينتظره على هذا العمل فطلب المزيد .

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بمجرد أن فرغا من رفع القواعد من البيت قالا : « ربنا واجعلنا مسلمين لك » ولم يكتفيا بذلك بل أرادا امتداد حلاوة التكليف إلى ذريتهما من بعدهما . . فيقولان : « ومن ذريتنا أمة مسلمة » . . ليتصل أمد منهج الله فى الأرض ويستمر التكليف من ذرية إلى ذرية إلى يوم القيامة . . ثم يقولان : « وأرنا مناسكنا » . . أى بين لنا يارب ما تريده منا . بين لنا كيف نعبدك وكيف نتقرب إليك . . والمناسك هى الأمور التى يريد الله سبحانه وتعالى أن نعبده بها .

وقوله : « وأرنا مناسكنا » ترينا أن إبراهيم يرغب فى فتح أبواب التكليف على

نفسه ، لأنه لا يرى فى كل تكليف إلا تطهيرا للنفس وخيرا للذرية ونعيما فى الأخرة .. ولذلك يقول كما يروى لنا الحق : « وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم » .. وتب علينا ليس ضروريا أن نفهمها على أنها توبة من المعصية .. وأن إبراهيم وإسماعيل وقعا فى المعصية فيريدان التوبة إلى الله .. وإنما لأنهما علما أن من سيأتى بعدهما سيقع فى الذنب فطلبا التوبة لذريتهما .. ومن أين عَلِما ؟ عندما قال الله سبحانه وتعالى لإبراهيم : « ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » ..

لقد طلبا من الله تبارك وتعالى التوبة والرحمة لذريتهما .. والله يحب التوبة من عباده وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده المؤمن من احدكم وقع على بعيره وقد أضله فى فلاة .. لأن المعصية عندما تأخذ الإنسان من منهج الله لتعطيه نفعا عاجلا فإن حلاوة الإيمان ـ إن كان مؤمنا ـ ستجذبه مرة أخرى إلى الإيمان بعيدا عن المعاصى .. ولذلك قيل إن انتفعت بالتوبة وندمت على ما فعلت فإن الله لا يغفر لك ذنوبك فقط ولكن يبدل سيئاتك حسنات .. وقلنا ان تشريع التوبة كان وقاية للمجتمع كله من أذى وشر كبير .. لأنه لو كان الذنب الواحد يجعلك خالدا فى النار ولا توبة بعده لتجبر العصاة وازدادوا شرا .. ولأصيب المجتمع كله بشرورهم ولَيَئِسَ الناس من آخرتهم لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون)[1] .

لذلك فمن رحمة الله سبحانه أنه شرع لنا التوبة ليرحمنا من شراسة الأذى والمعصية .



(١) أخرجه الترمذى وابن ماجه والدارمى فى سننه والحاكم فى مستدركه .

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٢٩ ﴾

دعا إبراهيم عليه السلام الله سبحانه وتعالى ليتم نعمته على ذريته ويزيد رحمته على عباده .. بأن يرسل لهم رسولا يبلغهم منهج السماء حتى لا تحدث فترة ظلام فى الأرض تنتشر فيها المعصية والفساد والكفر ويعبد الناس فيها الأصنام كما حدث قبل إبراهيم .

كلمة « رسولا منهم » ترد على اليهود الذين أحزنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب ، وأن الرسالة كان يجب أن تكون فيهم .. ونحن نقول لهم ان جدنا وجدكم إبراهيم وأنتم من ذرية يعقوب بن اسحق.ومحمد صلى الله عليه وسلم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم وأخ لإسحاق .. ولا حجة لما تدعونه من أن الله فَضّلكم واختاركم على سائر الشعوب .. إنما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يسلب منكم النبوة لأنكم ظلمتم فى الأرض وعهد الله لا يناله الظالمون .

أراد الحق تبارك وتعالى أن يقول لهم ان هذا النبى من نسل إبراهيم وانه ينتمى إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

قوله تعالى : « يتلو عليهم آياتك » .. أى آيات القرآن الكريم .

وقوله تعالى : « ويعلمهم الكتاب والحكمة » .. يجب أن نعرف أن هناك فرقا بين التلاوة وبين التعليم . فالتلاوة هى أن تقرأ القرآن ، أما التعليم فهو أن تعرف معناها وما جاءت به لتطبقه وتعرف من أين جاءت .. وإذا كان الكتاب هو القرآن الكريم

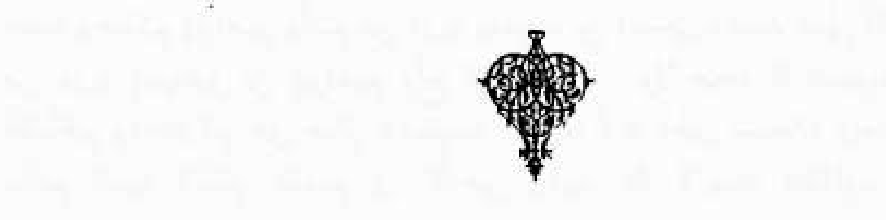
فإن الحكمة هى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التى قال الحق سبحانه وتعالى فيها فى خطابه لزوجات النبى :

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الأحزاب)

وقوله تعالى : « ويزكيهم » أى ويطهرهم ويقودهم إلى طريق الخير وتمام الإيمان .

وقوله جل جلاله : « إنك أنت العزيز الحكيم » . . أى العزيز الذى لا يغلب لجبروته ولا يسأله أحد . . « والحكيم » الذى لا يصدر منه الشيء إلا بحكمة بالغة .



﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

ما ملة إبراهيم؟ إنها عبادة الله وحده لاشريك له وعشق التكاليف؛ فإبراهيم وَفَّى كل ما كلفه به الله وزاد عليه .. وقابل الابتلاء بالطاعة والصبر .. فعندما ابتلاه الله بذبح ابنه الوحيد لم يتردد وكان يؤدى التكاليف بعشق ويحاول أن يستبقى المنهج السليم فى ذريته .

قوله تعالى : « ومن يرغب » يعنى يعرض ويرفض . ويقال رغب فى كذا أى أحبه وأراده . ورغب عن كذا أى صَدَّ عنه وأعرض .. والذين يصدُّون عن ملة إبراهيم ويرفضونها هؤلاء هم السفهاء الجهلة ، لذلك قال عنهم الله سبحانه وتعالى : « إلا من سفه نفسه » .. دليل على ضعف الرأى وعدم التفرقة بين النافع والضار .. فعندما يكون هناك من ورثوا مالاً وهم غير ناضجى العقل لا يتفق عقلهم مع سنهم نسميهم السفهاء .. والسفيه هو من لم ينضج رأيه ولذلك تنقل قوامته على ماله إلى ولى أو وصى ، لأنه بِسَفَهِهِ غيرُ قادر على أن ينفق المال فيما ينفع ..

والقرآن الكريم يعالج هذه المسألة علاجا دقيقا فيقول :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى سمى أموال السفهاء بأموال الولى ولم يعتبرها مال السفيه لأنه ليس أهلا للقيام عليها . . وجعل هذه الأموال تحت إشراف شخص آخر أكثر نضجا وحكمة .

وقوله تعالى : « أموالكم » ليكون الولى أو الوصى حريصا عليها كَمالِهِ أو أكثر ولكن هو قيم فقط . . فإذا بلغ الإنسان سن الرشد أو شفى السفيه من سفاهته يرد إليه ماله ليتصرف فيه .

ونحن نرى عددا من الأبناء يرفعون قضايا على آبائهم وأمهاتهم يتهمونهم فيها بالسفه لأنهم لا يحسنون التصرف فى أموالهم . . ثم يأخذون هذه الأموال ويبعثرونها هم . . والذى يجب أن يعلمه كل من يقوم بهذه العملية أنه لا حق له فى إنفاق المال وتبذيره لحسابه الخاص ، ولكنّ هناك حكمين: إما أن يكون الشخص فقيرا فله أن يأكل بالمعروف . . وإما أن يكون غنيا فيجعل عمله فى الولاية لله لا يتقاضى عنه شيئا . . أما أن يأخذ المال ويبعثره على نفسه وشهواته وعلى زوجته وأولاده فهذا مرفوض ويحاسب عليه . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

إذن الذى يعرض عن ملة إبراهيم هو سفيه لا يملك عقلا يميز بين الضار والنافع .

ويقول الله سبحانه وتعالى : « ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » . . اصطفاه فى الدنيا بالمنهج وبأن جعله إماما وبالابتلاء . . وكثير من الناس يظن ان ارتفاع مقامات بعضهم فى أمور الدنيا هو اصطفاء من الله لهم بأن أعطاهم زخرف الحياة الدنيا ويكون هذا مبررا لأن يعتقدوا أن لهم منزلة عالية فى الآخرة . . نقول لا ، فمنازل الدنيا لا علاقة لها بالآخرة . ولذلك قال الله تبارك وتعالى : « ولقد اصطفيناه فى الدنيا » . . وأضاف : « وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » . . لنعلم أن إبراهيم عليه السلام له منزلة عالية فى الدنيا ونعيم فى الآخرة أى الاثنين معا .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾

والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه قال لإبراهيم أسلم فقال أسلمت . . إذن فمطلوب الحق سبحانه وتعالى من عبده أن يسلم إليه . . ولم يقل الحق أسلم إلىّ لأنها مفهومة . ولم يقل أسلم لربك لأن الإسلام لا يكون إلا لله .لأنه هو سبحانه المأمون علينا . . على أن إبراهيم عليه السلام قال فى رده : « أسلمت لرب العالمين » .

ومعنى ذلك أنه لن يكون وحده فى الكون .لأنه إذا أسلم لله الذى سخر له ما فى السموات والأرض . . يكون قد انسجم مع الكون المخلوق من الله للإنسان . . ومَنْ أكثرُ نضجاً فى العقل ممن يُسلم وجهه لله سبحانه . . لأنه يكون بذلك قد أسلمه إلى عزيز حكيم قوى لا يقهر ، قادر لا تنتهى قدرته . . غالب لا يغلب ، رزاق لا يأتى الرزق إلا منه . فكأنه أسلم وجهه للخير كله .

والدين عند الله سبحانه وتعالى منذ عهد أدم إلى يوم القيامة هو إسلام الوجه لله ، ولماذا الوجه ؟ لأن الوجه أشرف شىء فى الإنسان يعتز به ويعتبره سمة من سمات كرامته وعزته . . ولذلك فنحن حين نريد منتهى الخضوع لله فى الصلاة نضع جباهنا ووجوهنا على الأرض . . وهذا منتهى الخشوع والخضوع أن تضع أشرف ما فيك وهو وجهك على الأرض إعلانا لخضوعك لله سبحانه وتعالى .

والله جل جلاله يريد من الإنسان أن يسلم قيادته لله . . بأن يجعل اختياراته فى الدنيا لما يريده الله تبارك وتعالى . . فإذا تحدث لا يكذب ، لأن الله يحب الصدق ،

وإذا كلف بشيء يفعله لأن التكليف فى صالحنا ولا يستفيد الله منه شيئا . . وإذا قال الله تعالى تصدق بمالك أسرع يتصدق بماله ليرد له أضعافا مضاعفة فى الآخرة وبقدرة الله .

وهكذا نرى أن الخير كله للإنسان هو أن يجعل مراداته فى الحياة الدنيا طبقا لما أراده الله . . وفى هذه الحالة يكون قد انسجم مع الكون كله وتجد أن الكون يخدمه ويعطيه وهو سعيد .

أما من يسلم وجهه لغير الله فقد اعتمد على قوى يمكن أن يضعف ، وعلى غنى يمكن أن يفتقر . . وعلى موجود يمكن أن يموت ويصبح لا وجود له . ولذلك فهو فى هذه الحالة يتصف بالسفاهة لأنه اعتمد على الضار وترك النافع .



﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ
لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٣٢ ﴾

عندما تقرأ كلمة وصى فاعلم أن الوصية تأتى لحمل الإنسان على شيء نافع فى آخر وقت لك فى الدنيا . لأن آخر ساعات الإنسان فى الدنيا إن كان قد عاش فيها يغش الناس جميعا فساعة يحتضر لا يغش نفسه أبدا ولا يغش أحدا من الناس لماذا ؟ لأنه يحس إنه مقبل على الله سبحانه فيقول كلمة الحق .

النصح أو الوصية هى عظة تحب أن يستمسك بها من تنصحه وتقولها له مخلصا فى آخر لحظة من لحظات حياته . . ولذلك سيأتى الله سبحانه وتعالى ليبين لنا ذلك فى قوله :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة البقرة).

وهكذا يريد الله سبحانه أن يبين لنا أن الوصية دائما تكون لمن تحب . . وأن حب الإنسان لأولاده أكيد سواء أكان هذا الإنسان مؤمنا أم كافرا . . ونحن لا نتمنى أن يكون فى الدنيا من هو أحسن منا إلا أبناءنا ونعمل على ذلك ليكون لهم الخير كله .

وصّى إبراهيم بنيه، ويعقوب وصى بنيه . . وكانت الوصية « يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين » إذن فالوصية لم تكن أمرا من عند إبراهيم ولا أمرا من عند يعقوب.ولكن كانت أمرا إختاره الله للناس فلم يجد إبراهيم ولا يعقوب أن يوصيا

أولادهما إلا بما اختاره الله . . فكأن إبراهيم ائتمن الله على نفسه فنفذ التكاليف وائتمنه على أولاده فأراد منهم أن يتمسكوا بما اختاره لهم الله .

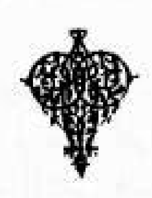
قوله تعالى : « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب » . . إبراهيم هو الأب الكبير وابنه اسحق وابن اسحق يعقوب . . ويعقوب هو الأب المباشر لليهود . . ويعقوب وصاهم كما يروى لنا القرآن الكريم : « يا بَنِيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تَمُوتُنَّ إلا وأنتم مسلمون » .

أنت لا تنهى إنسانا عن أمر إلا إذا كان فى امكانه أن يتجنبه ولا تأمره به إلا إذا كان فى إمكانه أن ينفذه . . فهل يملك أولاد يعقوب أن يموتوا وهم مسلمون ؟ والموت لا يملكه أحد . . إنه يأتى فى أى وقت فجأة . . ولكن مادام يعقوب قد وصى بنيه : « لا تموتن إلا وأنتم مسلمون » فالمعنى لا تفارقوا الإسلام لحظة حتى لا يفاجئكم الموت إلا وأنتم مسلمون .

والله سبحانه وتعالى أخفى موعد الموت ومكانه وسببه . . ليكون هذا إعلاما به ويتوقعه الناس فى أى سن وفى أى مكان وفى أى زمان . . ولذلك قد نلتمس العافية فى أشياء يكون الموت فيها . . والشاعر يقول :

إن نام عنك فكل طب نافع
أو لم ينم فالطب من أسبابه

أى إن لم يكن قد جاء الأجل ، فالطب ينفعك ويكون من أسباب الشفاء . . أما إذا جاء الأجل فيكون الطب سببا فى الموت ، كأن تذهب لإجراء عملية جراحية فتكون سبب موتك . . فالإنسان لابد أن يتمسك بالإسلام وبالمنهج ولا يغفل عنه أبدا . . حتى لا يأتيه الموت فى غفلته فيموت غير مسلم ..والعياذ بالله .



﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

هذا خطاب من يعقوب ينطبق ويمس اليهود المعاصرين لنزول القرآن الكريم .. يعقوب قال لأبنائه ماذا تعبدون من بعدى : « قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون » ..

هذا إقرار من الأسباط أبناء يعقوب بأنهم مسلمون وأن آباءهم مسلمون .. وتأمل دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى : « نعبد إلهك وإله آبائك » .. فكأنه لم يحدث بعد موت إبراهيم وحين كان يعقوب يموت لم يحدث أن تغير المعبود وهو الله سبحانه وتعالى الواحد .. ولذلك قالوا كما يروى لنا القرآن الكريم : « إلها واحدا » .. وسنأخذ من هذه الآية لقطة تفيدنا فى أشياء كثيرة لأن القرآن سيتعرض فى قصة إبراهيم إنه تحدث مع أبيه فى شئون العقيدة .. فقال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

(سورة الانعام)

ونحن نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلالة إسماعيل ابن إبراهيم .. والرسول عليه الصلاة والسلام قال :

(أنا سيد ولد آدم)(١) .

فإذا كان آزرُ أبو إبراهيم كافراً وعابداً للأصنام . . فكيف تصح سلسلة النسب الشريف ؟ نقول إنه لو أن القرآن قال « وإذ قال إبراهيم لأبيه » وسكت لكان المعنى أن المخاطب هو أبو إبراهيم . . ولكن قول الله : « لأبيه آزر » . . جاءت لحكمة . لأنه ساعة يذكر اسم الأب يكون ليس هو الأب ولكن العم . . فأنت إذا دخلت منزلا وقابلك أحد الأطفال تقول له هل أبوك موجود ولا تقول أبوك فلان لأنه معروف بحيث لن يخطىء الطفل فيه . . ولكن إذا كنت تقصد العم فإنك تسأل الطفل هل أبوك فلان موجود ؟ فأنت في هذه الحالة تقصد العم ولا تقصد الأب . . لأن العم في منزلة الأب خصوصا إذا كان الأب متوفيا .

إذن قول الحق سبحانه وتعالى : « لأبيه آزر » بذكر الاسم فمعناه لعمه آزر . . فإذا قال إنسان هل هناك دليل على ذلك ؟ نقول نعم هناك دليل من القرآن في هذه الآية الكريمة : « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله أبائك » . . والآباء جمع أب ، ثم حدد الله تبارك وتعالى الآباء ، إبراهيم وهو الجد يطلق عليه أب . . وإسماعيل وهو العم يطلق عليه أب واسحق وهو أبو يعقوب وجاء إسماعيل قبل إسحق .

إذن ففى هذه الآية جمع أب من ثلاثة هم إبراهيم وإسماعيل وإسحق . . ويعقوب الذى حضره الموت هو ابن اسحق ، ولكن أولاد يعقوب لما خاطبوا آباهم قالوا أباءك ثم جاءوا بأسمائهم بالتحديد . . وهم إبراهيم الجد وإسماعيل العم واسحق أبو يعقوب وأطلقوا عليهم جميعا لقب الأب . . فكأن إسماعيل أطلق عليه الأب وهو العم وإبراهيم أطلق عليه الأب وهو الجد وإسحق أطلق عليه الأب وهو الأب . . فإذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أنا أشرف الناس حسباً ولا فخر)(٢) .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم .

(٢) أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس .

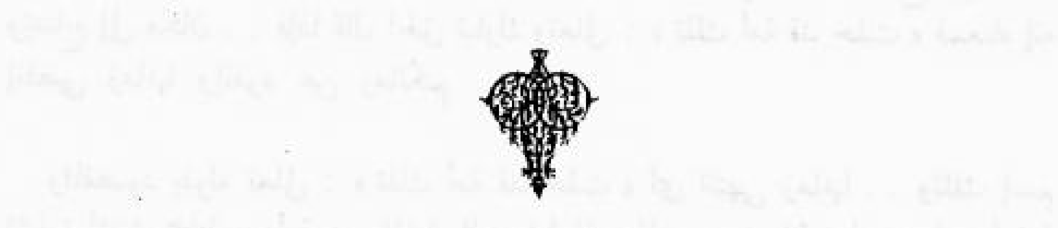
يقول بعض الناس كيف ذلك ووالد إبراهيم كان غير مسلم .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(أنا سيد ولد آدم)[١] .

فإذا قال أحدهم كيف هذا وأبو إبراهيم عليه السلام كان مشركا عابدا للأصنام .. نقول له لم يكن آزر أبا لإبراهيم وإنما كان عمه ، ولذلك قال القرآن الكريم « لأبيه آزر » وجاء بالاسم يريد به الأبوة غير الحقيقية .. فأبوة إبراهيم وأبوة اسحق معلومة لأولاد يعقوب .. ولكن إسماعيل كان مقيما فى مكة بعيدا عنهم ، فلماذا جاء اسمه بين إبراهيم وإسحق ؟ نقول جاء بالترتيب الزمنى لأن إسماعيل أكبر من اسحق بأربعة عشر عاما ..

وكونه وصف الثلاثة بأنهم آباء .. إشارة لنا من الله سبحانه وتعالى أن لفظ الأب يطلق على العم ..

والله تبارك وتعالى يريدنا أن نتنبه لمعنى كلمة آزر .. ويريد أن يلفتنا أيضا إلى أن تعدد البلاغ عن الله لا يعنى تعدد الآلهة .. لذلك قال سبحانه : « إلها واحدا » ..



(١) أخرجه الإمام مسلم .

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

وقوله تعالى : « خلت » أى انفردت .وخلا فلان بفلان أى انفرد به . . وخلا المكان من نزيله أى أصبح المكان منفردا ، والنزيل منفردا ولا علاقة لأحدهما بالآخر . . الله تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة البقرة)

أى إنفردوا هم وشياطينهم ولم يعد فى المكان غيرهم ، ولقد قلنا إن كل حدث لابد أن يكون له محدث ، ولا حدث يوجد بذاته ، وكل حدث يحتاج إلى زمان ويحتاج إلى مكان . . فإذا قال الحق تبارك وتعالى : « تلك أمة قد خلت » فمعناه إنه إنقضى زمانها وإنفرد عن زمانكم .

والمقصود بقوله تعالى : « تلك أمة قد خلت » أى انتهى زمانها . . وتلك إسم إشارة لمؤنث مخاطب وأمة هى المشار إليه،والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولعامة المسلمين . . والله سبحانه وتعالى حين يقول : « تلك أمة » فكأنها مميزة بوحدة عقيدتها ووحدة إيمانها حتى أصبحت شيئا واحدا . . ولذلك لابد أن يخاطبها بالوحدة . . وإقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾

(سورة الانبياء)